دراسة تاريخية أثرية جيومورفولوجية لسهل الغاب في سورية

أ.م. د. حسام غازي[1]

الملخص:

كان سهل الغاب قبل تجفيفه عام 1958م يمثل منطقة مستنقعات تتجمع في بحيرتين، تعرفان تاريخياً باسم البحيرة الشمالية والبحيرة الجنوبية (بحيرة أفامية)، وبعد تجفيفه تحول إلى أرض خصبة مستثمرة في زراعة العديد من المحاصيل الاستراتيجية، حيث يعتبر السلة الغذائية الأولى على مستوى الجمهورية العربية السورية مما يسهم في تجاوزها للأزمات والعقوبات الدولية المفروضة وبالأخص "قانون قيصر" على المستوى الغذائي. وقد تركزت جهود الباحثين منذ تجفيفه على تعزيز إيجابيات عملية التجفيف واستغلال أراضيه وريها بالشكل الأمثل، بدون التطرق لسلبيات عملية التجفيف وكيفية معالجتها، ومعرفة طبيعة الاستيطان في السهل قبل تجفيفه، ومعرفة التحولات الجيومورفولوجية التي طرأت على السهل بعد عملية التجفيف وتأثيرها على محيط السهل، وبالتالي جاءت هذه الدراسة للبحث في الإشكاليات سابقة الذكر، بالاعتماد على المنهجين التاريخي، والوصفي بأسلوب تحليلي.

الكلمات المفتاحية: سهل الغاب، التجفيف، المصادر التاريخية، آثار الاستيطان، الجيومورفولوجية.

[1] استاذ المساعد قسم الاثار بكلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة دمشق.

A historical, archaeological, and geomorphological study of the Al-Ghab Plain in Syria

Dr. Hossam Ghazi[2]

Abstract

Before its drying in 1958 AD, the Al-Ghab Plain represented a swampy area that gathered in two lakes, historically known as the Northern Lake and the Southern Lake (Afamiya Lake). After draining, this plain turned into a fertile land invested in the cultivation of several strategic crops. This contributes to its overcoming the imposed international crises and sanctions, especially the "Caesar's Law" on the nutritional level. Since its drying, the efforts of the researchers have focused on enhancing the advantages of the drying process and optimizing its lands and irrigating them optimally, without addressing the negative aspects of the drying process and how to treat them, knowing the nature of settlement in the plain before drying it, and knowing the geomorphological transformations that occurred on the plain after the drying process and its impact on the surroundings of the plain. This study is to investigate the aforementioned problems, depending on the historical and descriptive approaches in an analytical manner.

Keywords: Al-Ghab Plain, Draining, Historical Sources, Effects Of Settlement, Geomorphology.

[2] Assistant Professor, Department of Archeology, Faculty of Arts and Human Sciences, Damascus University

المقدمة:

يقع سهل الغاب في المثلث بين محافظات حماه وإدلب واللاذقية (الشكل: 1)، وهو سهل واسع يبلغ طوله 80كم، ويتراوح عرضه بين 10 إلى 13كم، وتقدر مساحته بنحو 141 ألف هكتار. كان سهل الغاب قبل تجفيفه عام 1958م عبارة عن منطقة مستنقعات تتجمع في بحيرتين، تعرفان تاريخياً باسم البحيرة الشمالية والبحيرة الجنوبية (بحيرة أفامية)، ويعود السبب في ذلك لوجود عتبة قرقر البازلتية التي تمنع تصريف مياهه. وفي 13 كانون الثاني عام 1951م تم استحداث مؤسسة إدارة مشروع سهل الغاب من أجل تجفيفه، وفي شهر نيسان عام 1952م قامت المؤسسة بإجراء الدراسات اللازمة لتجفيف السهل، وبعدها بدأ تجفيف السهل في عام 1956م من خلال كسر عتبة قرقر البازلتية بعرض 11– 30م، وبعمق 4 –6م، وتم تصريف المياه تماماً عام 1958م، وتم شق مجرى جديد لنهر العاصي مع أقنية فرعية، فتحول سهل الغاب إلى سهل خصب، تم توزيع أراضيه على الفلاحين عام 1969م بموجب قانون الإصلاح الزراعي. إذاً مضى أربع وستون عاماً على تجفيف سهل الغاب، تركزت خلالها جهود الباحثين على استغلال أراضيه وريها بالشكل الأمثل، ولكن حتى الآن لم يتم التطرق من قبل الباحثين إلا لإيجابيات عملية التجفيف، ولمعالجة الإشكالية المتعلقة بالسهل بعد تجفيفه، وبالتالي بقيت العديد من الإشكاليات العلمية المتعلقة بالسهل بحاجة إلى حل، أبرزها معرفة سلبيات عملية التجفيف وكيفية معالجتها، ومعرفة طبيعة الاستيطان في السهل قبل عملية التجفيف، ومعرفة التحولات الجيومورفولوجية[3] التي طرأت على السهل بعد عملية التجفيف، وبالتالي جاء هذا البحث للإجابة عن التساؤلات سابقة الذكر، بالاعتماد على المنهجين التاريخي، والوصفي بأسلوب تحليلي، وذلك من خلال القيام بثلاثة دراسات: الأولى تاريخية تهدف إلى جمع المعلومات التاريخية التي تساعدنا على معرفة الواقع الجيومورفولوجي والتاريخي لسهل الغاب قبل عملية التجفيف الأخيرة. والثانية أثرية هدفها معرفة طبيعة الاستيطان في السهل قبل عملية التجفيف. والثالثة جيومورفولوجية هدفها معرفة الواقع الجيومورفولوجي لسهل الغاب قبل عملية التجفيف وبعدها في محاولة لفهم أبرز التحولات الجيولوجية والجيومورفولوجية التي طرأت على السهل ومحيطه على أثر عملية التجفيف. وتأتي أهمية هذا البحث من كونه يمثل الدراسة الأولى الهادفة إلى معرفة سلبيات عملية تجفيف سهل الغاب ومعالجتها قبل تفاقم تأثيراتها، وكذلك معرفة طبيعة الاستيطان في السهل قبل تجفيفه بهدف الحفاظ على تراثه الثقافي، وتوظيف

[3] الجيومورفولوجية: علم شكل الأرض.

المعطيات التي تم جمعها لإيجاد حلول مستقبلية لسلبيات عملية التجفيف. وفيما يخص حدود البحث، فهي تنحصر من الناحية الجغرافية بسهل الغاب وعمقه الاستراتيجي الممتد من سلسلة الجبال الساحلية غرباً حتى منطقة السلمية شرقاً، أما من الناحية الكرونولوجية فهو يشمل تاريخ سهل الغاب من بداية استيطانه خلال عصور ما قبل التاريخ حتى يومنا هذا، وأخيراً بالنسبة للحدود العملية فهي تشمل سلبيات عملية التجفيف، وطبيعة الاستيطان في السهل قبل تجفيفه.

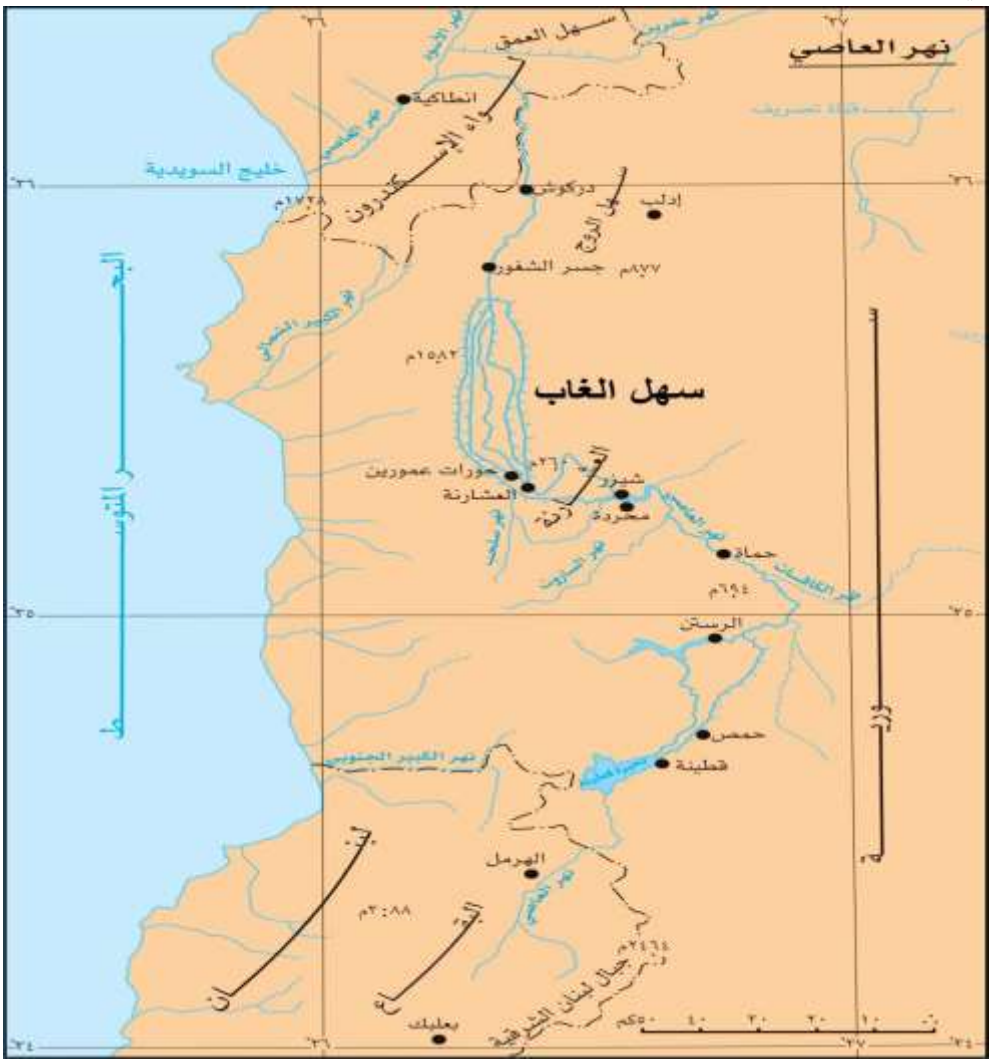

الشكل 1: خارطة سورية محدد عليها مجرى نهر العاصي وسهل الغاب.

المبحث الأول: الدراسة التاريخية

تهدف هذه الدراسة إلى جمع المعلومات التاريخية التي تساعدنا على معرفة الواقع الجيومورفولوجي والتاريخي لسهل الغاب قبل تجفيفه عام 1958م، ويمكننا استعراض ما جاء

في المصادر التاريخية على النحو التالي: جاء في كتاب الأعلاق النفسية لأبن رستة[4] أن "مدينة فامية وهي مدينة رومية قديمة خراب على بحيرة عظيمة"[5].

وجاء في كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر لشيخ الربوة[6] ما يلي "وبحيرة فامية يشقها العاصي ولا يلتقي أحدهما بالآخر وفيها من السمك الإنكليس والسلور ما لا بغيرها"[7].

وقال أبو الفداء[8] في كتابه تقويم البلدان "قال في المشترك ويقال لفامية أفامية بزيادة الهمزة في أولها، قال وهي مدينة قديمة، ويطلق هذا الاسم على كورنها أيضاً، وفامية أيضاً قرية من قرى فم الصالح من نواحي واسط، قال في العزيزي، وكورة أفامية لها مدينة كانت عظيمة قديمة على نشز من الأرض لها بحيرة حلوة يشقها النهر المقلوب"[9].

وقال القلقشندي[10] في كتابه صبح الأعشى واصفاً نهر العاصي "...ويجتاز حمص إلى الرستن، ويمتد إلى حماه، ثم إلى شيزر، ثم إلى بحيرة أفامية، ثم يخرج من بحيرة أفامية، ويمر على دركوش..."[11].

وقال القلقشندي في موضع آخر "ويصب في نهر العاصي عدّة أنهر منها نهر منبعه من تحت أفامية يسير مغترباً يصل إلى بحيرة أفامية ويختلط بالعاصي. ومنها نهر في شمال أفامية على نحو ميلين يعرف بالنهر الكبير يسير مدى قريباً ويصب في بحيرة أفامية، ويخرج منها مع العاصي"[12].

ووصف القلقشندي بحيرة أفامية قائلاً: "وهي عدة بطائح في الغرب بميلة إلى الشمال عن أفامية بين غابات من القصب، يصب فيها النهر العاصي من الجنوب، وبها بحيرتان جنوبية وشمالية يصاد فيهما السمك"[13].

---

[4] أبو علي أحمد بن عمر بن رسته، عالم جغرافي، أصله من مدينة أصفهان ببلاد فارس، عاش في القرن الثالث الهجري، التاسع- العاشر الميلادي، تجوّل في أنحاء عدة من بلاد العالم الإسلامي، وارتحل متجولاً في بلاد العرب متعرفاً طبيعة البلاد وحياة السكان.

[5] ابن رسته، الأعلاق النفسية، مطبعة بريل، ليدن، 1892م، الجزء 7 ، ص .324

[6] شيخ الربوة (654- 727هـ/1256-1327م) لقب اشتهر به شمس الدين أبو عبد الله بن محمد بن أبي طالب الأنصاري، الصوفي، الدمشقي، تولى مشيخة الربوة من قبل الأفرم والي دمشق، وأطلق عليه لقب شيخ الربوة.

[7] شيخ الربوة، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية، بطربورغ، 1865م، ص 122.

[8] إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر شاهنشاه بن أيوب بن شادي السلطان المؤيد عماد الدين أبو الفداء (672-732 هـ/1273-1331م) .

[9] أبو الفداء، تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ص .289

[10] شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي، الشهير بأبو العباس القلقشندي، ولد في عام 756هـ/1355م في قرية قلقشندة الواقعة في محافظة القليوبية في مصر، وهو أحد أبرز المؤرخين العرب، توفي عام 821هـ/1418م.

[11] القلقشندي، صبح الأعشى، المطبعة الأميرية، القاهرة، الجزء الرابع، 1914م، ص .80

[12] القلقشندي، ص 80 -.81

[13] القلقشندي، ص .84

وتابع القلقشندي وصفه قائلاً "فالجنوبية منها بحيرة أفامية المذكورة، وسعتها بالتقريب نحو نصف فرسخ، وقعرها قريب قامة، وأرضها موحلة لا يقدر الإنسان على الوقوف فيها، وبوسطها جمم قصب وبردي وحولها القصب والصفصاف، وبها من أنواع الطير ما لا يحصى كثرةً، وينبت بها في زمن الربيع اللينوفر الأصفر حتى يستر الماء عن آخره بورقه وزهره"[14].

ثم وصف القلقشندي البحيرة الشمالية قائلاً "والبحيرة الشمالية من عمل حصن برزوية بقدر بحيرة أفامية أربع مرات، ووسطها مكشوف، وينبت اللينوفر بجانبها الجنوبي والشمالي وبينها وبين بحيرة أفامية المذكورة زقاق تسير فيه المراكب من إحداهما إلى الأخرى"[15].

وقال أحمد وصفي زكريا في كتابه جولة أثرية في بعض البلاد الشامية واصفاً سهل الغاب "أما المستنقعات والآجام... فهي بطائح سهل غاب أفامية وأدغاله، وهذه تنقلب في فصل الشتاء إلى بحيرة عظيمة، كانت تدعى بحيرة أفاميا، تحصل من نهر العاصي الذي لا يجد متسعاً عند قرية القرقور وما بعدها ليجري براحة في زمن طغيانه، ثم من الأنهر والينابيع الكثيرة التي تنبجس من سفوح الجبال المحيطة بذلك السهل من الشرق والغرب"[16].

وأضاف أحمد وصفي ذكريا "ذكر السائح الفرنسي كيليوم راي أنه شاهد في سنة 1860م سداً له فتحات. وفي جنوب الغاب ووسط مياهه ضيعة تدعى الخندق، في جوارها خندق قديم كان خاصاً بتصريف المياه نحو العاصي، وكانت برزية تفترق عن أفامية ببحيرة تحصل من سد"[17]. وهذا ما يؤكده وصف استرابون الذي تحدث عن خصبه ووفرة غلاله، وبما كان يربى فيه من الأفيال والجواميس والخيل وأن القدماء أقاموا فيه سدوداً وحفروا خنادق لمنع طغيان العاصي.

وذكر أحمد وصفي زكريا قرى الغاب قائلاً "... وكذلك في حضيض هذا الجبل على سيف الغاب مما يتبع قضاء مصياف، ضياع مرداش وعين الكروم، وعناب وبلونة، والجورة وقلع الشيخ ملوخ، وفقرو ورشه... وتتدفق من سفوح الجبال ينابيع عذبة باردة، أخصها في الشمال عين الحمام وعين جورين وعين سليمو، وفي الجنوب مما رأيته وشربت من بعضه في صفر سنة 1353هـ نبع الطيب ونبع السوس والفوار وعين الجراص، وثمة نهير يدعى البارد عند قرية رشة، وآخر يدعى تل سلحب عند قرية تل سلحب يصب في العاصي"[18].

---

[14] القلقشندي، ص 84.

[15] القلقشندي، ص 84.

[16] أحمد وصفي زكريا، جولة أثرية في بعض البلاد الشامية، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، 1984م، ص 136.

[17] المصدر السابق، ص 137.

[18] المصدر السابق، ص 141.

إذاً يمكننا القول بحسب ما سبق عرضه أن سهل الغاب كان قبل تجفيفه عام 1958م يضم بحيرتان، شمالية وجنوبية، وكان يطلق على البحيرة الجنوبية اسم بحيرة أفامية[19]، وكانت تتوضّع إلى الشمال الغربي من مدينة أفامية. أما الشمالية فكانت تتوضّع في القسم الشمالي من سهل الغاب، وهي بحسب وصف القلقشندي من عمل حصن برزوية، وتقدر مساحتها بأربع أضعاف بحيرة أفامية. وتجمع المصادر على وجود العديد من المجاري النهرية والينابيع التي تغذي البحيرتين، إضافة إلى المصدر الأساسي للمياه المتمثل بالمجرى القديم لنهر العاصي، ومن أبرز تلك المجاري والينابيع نبع تحت مدينة أفامية الأثرية ونبع آخر إلى الشمال منها، ونهر سلحب، ونهر البارد، ونبع عين الحمام، وعين جورين، وعين سليمو، ونبع الطيب، ونبع السوس، والفوار، وعين الجراص. وفضلاً عن ذلك تشير بعض المصادر التاريخية إلى أن سهل الغاب كان خلال العصور الكلاسيكية مجففاً، ويحتوي على خنادق وأقنية وسدود لضبط منسوب المياه داخل السهل، وبالتالي يمكننا القول أنَّ سهل الغاب جفّف مرتين، الأولى خلال العصور الكلاسيكية، والثانية في عام 1958م.

المبحث الثاني: الدراسة الأثرية

تهدف هذه الدراسة إلى معرفة طبيعة الاستيطان في سهل الغاب قبل تجفيفه عام 1958م، وبناءً على المسح الأثري الذي قمنا به لسهل الغاب ومحيطه، وعلى نتائج الأبحاث والتنقيبات الأثرية التي تم القيام بها من قبل العديد من البعثات الأثرية في أطراف السهل يمكننا توصيف آثار الاستيطان في سهل الغاب ومحيطه على النحو التالي:

عصور ما قبل التاريخ: تؤرخ من بداية استيطان سورية في نحو 1800000 ق. م حتى اختراع الكتابة في نحو عام 3200 ق. م[20]، وقد تم توثيق آثارها في محيط السهل[21]، بينما لم يعثر بداخله على أي آثار عائدة لتلك العصور.

عصري البرونز والحديد: يؤرخ عصر البرونز على نحو 3200 إلى 1181 ق.م، ويؤرخ عصر الحديد على نحو 1181 إلى 539 ق.م، وقد تم توثيق آثار تلك الفترة داخل السهل

[19] BALTY J.-C. 1987. Problèmes de l'eau à Apamée de Syrie. In : L'homme et l'eau en Méditerranée et au Proche-Orient. IV. L'eau dans l'agriculture. Séminaire de recherche 1982-1983 et journées des 22 et 23 octobre 1983. Lyon : Maison de l'Orient et de la Méditerranée Jean Pouilloux. P. 12.

[20] غازي، حسام، والحايك، مي، آثار سورية خلال عصور ما قبل التاريخ، منشورات جامعة دمشق، 2021– 2022م، ص 13.

[21]COPELAND L. et HOURS F. 1993. The Middle Orontes, Palaeolithic Flint Industries. *In Le Paléolithique de la Vallée Moyenne de l'Orontes (Syrie) Peuplement et environnement (Sanlaville et all. (eds)*, BAR. IS. 587. Pp. 64-144.

وفي محيطه، ولكن نلحظ ندرة المواقع الأثرية العائدة لتلك الفترة داخل السهل، وكثافتها في محيطه، حيث اقتصر الاستيطان داخل السهل على بعض أجزائه الجنوبية المرتفعة، التي ضمت خمسة مواقع أثرية فقط، وهي: تل سلحب العائد لعصر البرونز الوسيط والحديث، وتل كنبتري العائد لعصر البرونز الوسيط، وتل ملوحة العائد لعصر البرونز الوسيط والحديث، وتل التتن العائد لعصر البرونز الوسيط، وتل دبين العائد لعصر الحديد. ولكن بالمقابل نلحظ كثافة الاستيطان العائد لعصري البرونز والحديد في محيط السهل، حيث تم توثيق الكثير من المواقع الأثرية العائدة لتلك الفترة على الطرفين الجنوبي والشرقي لسهل الغاب، ومن أبرز تلك المواقع تل عمورين، تل السقيلبية، تل الصارمية، تل ديديس (تل جب رملة)، تل حنجور، تل ديمو، تل الهزانة وتل سكين القعادة[22] (الشكل: 2 و3) إضافة إلى السويات الدنيا من مدينة أفامية الأثرية، وكذلك تلك القرقور على الطرف الشمالي لسهل الغاب[23].

العصور الكلاسيكية: تؤرخ على نحو 333 ق.م إلى 636م، وتشمل العصر الهلنستي (333–64 ق م)، والعصر الروماني (64 ق.م–330م)، والعصر البيزنطي (330–636 م)[24]. تم توثيق تلك العصور من خلال الكثير من المواقع الأثرية داخل السهل وفي محيطه، ومن أبرز تلك المواقع مدينة أفامية الأثرية[25]، إضافة إلى عدد كبير من القرى والمزارع التابعة لها داخل السهل مثل تل دبين، وتل مكسور (الشكل: 4)، وتل الشمرة، وتل التتن... وكذلك في محيط السهل مثل قرية رشا (الشكل: 5)، والجورة، ونهر البارد، وقنية، ونبع الطيب، وخرائب الدر، وجوبة حمدوش 1 و2، وبلونة، وجوصة[26]...

[22] غازي، حسام، وداؤود صفوان، نتائج المسح الأثري لجنوب الغاب، الوقائع الأثرية السورية، المديرية العامة للآثار والمتاحف، العدد 5، 2011م، ص 89– 106.

[23] CASANA J. 2012. Results of the 2010 season of excavation by the American expedition to Tell Qarqur, CAS, vol. VI, Pp. 72-79.

[24] BALTY J.-C. 1991. Apamée et la Syrie du Nord aux époques hellénistique et romaine. Revue du monde musulman et de la Méditerranée, n° 62, Alep et la Syrie du Nord. P. 15.

[25] أحمد وصفي زكريا، مدينة أفامية الأثرية وصلتها بسهل الغاب، الحوليات الأثرية العربية السورية، العدد 7، الجزء 1، 1957م، ص 95– 124.

[26] غازي حسام، وداؤود صفوان، المرجع السابق، 2011م، ص 89– 106.

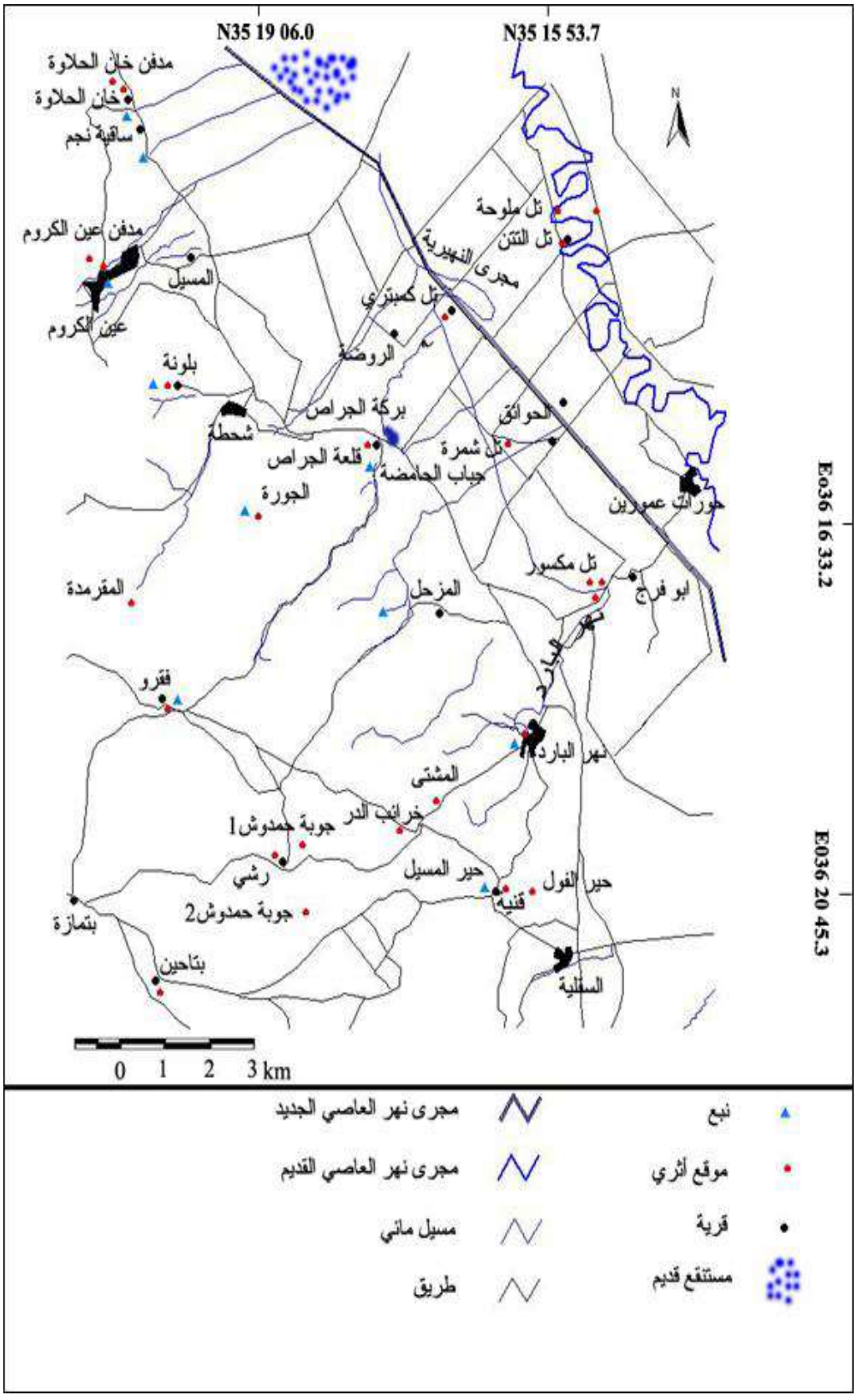

الشكل 2: خارطة للقسم الجنوبي من سهل الغاب وطرفه الغربي محدد عليها المجاري النهرية القديمة والمواقع الأثرية. غازي حسام، وداؤود صفوان، 2011م.

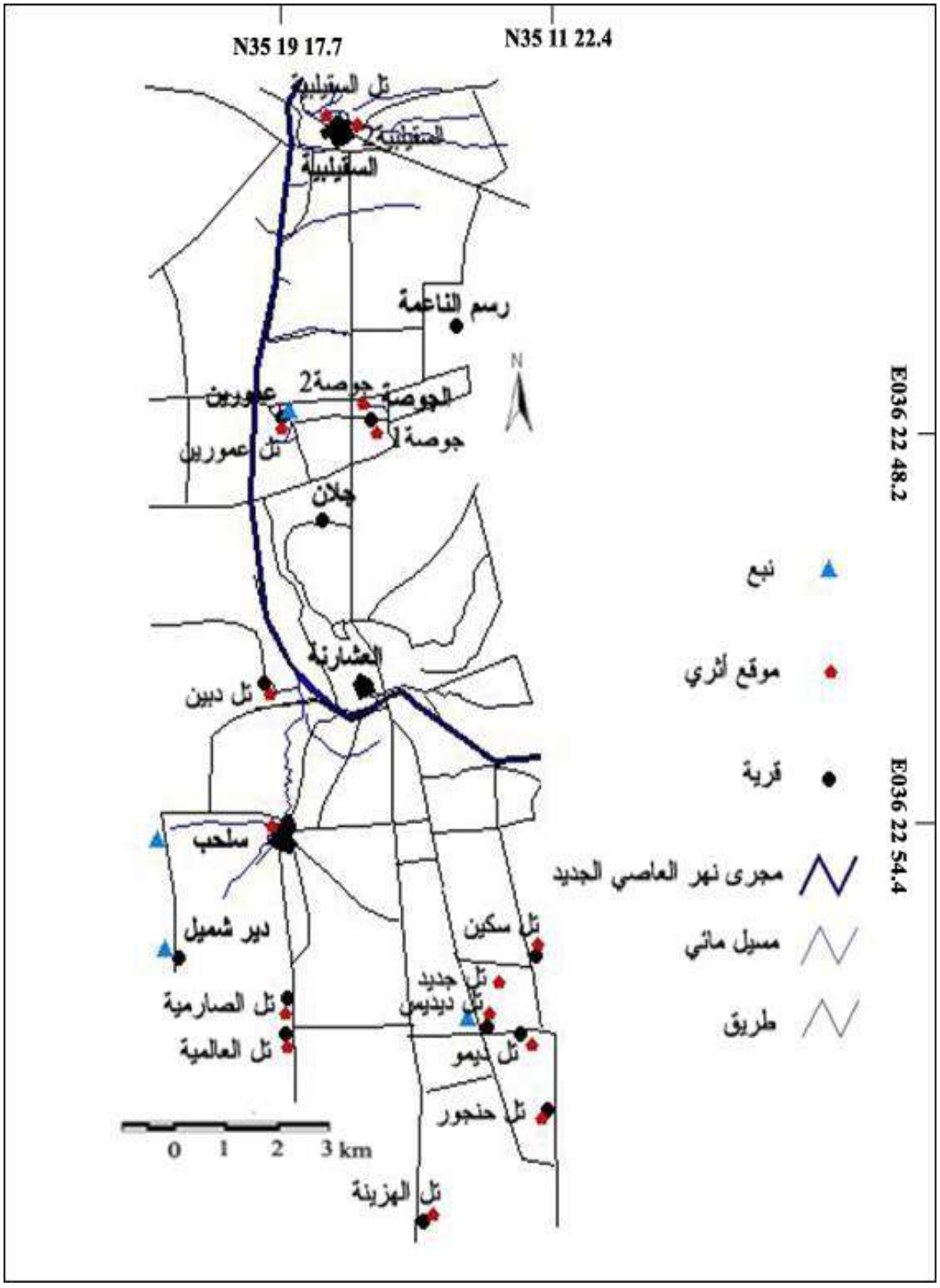

الشكل 3: خارطة للطرف الجنوبي من سهل الغاب محدد عليها المواقع الأثرية. غازي حسام، وداؤود صفوان، 2011م.

الشكل 4: تل مكسور. غازي حسام، وداؤود صفوان، 2011م.

الشكل 5: قرية رشا الأثرية. غازي حسام، وداؤود صفوان، 2011م.

العصور الإسلامية: تؤرخ على نحو 636 إلى 1918م. تم توثيق آثار تلك العصور داخل السهل وفي محيطه، ولكن نلحظ ندرة المواقع الأثرية العائدة لتلك العصور داخل السهل، وكثافتها في محيطه، حيث اقتصر الاستيطان داخل السهل على بعض المواقع المرتفعة في جنوب سهل الغاب مثل تل سلحب (الشكل: 6) وتل دبين وتل مكسور وتل التتن... بينما نلحظ كثافة المواقع في محيط السهل مثل قلعة المضيق، وجوصة، وتل عمورين، وتل الصارمية، ورشا، وطاحونة الحلاوة، وقلعة الجراص...[27]

[27] المرجع السابق، ص 89- 106.

بناءً على ما سبق يمكننا القول أنَّ سهل الغاب شهد فترتين أساسيتين من الاستيطان، الأولى خلال العصور الكلاسيكية، والثاني خلال النصف الثاني من القرن العشرين وبداية القرن الحالي، بينما كان الاستيطان خلال عصور ما قبل التاريخ وعصري البرونز والحديد والعصور الإسلامية ثانوياً داخل السهل، وكثيفاً في محيطه.

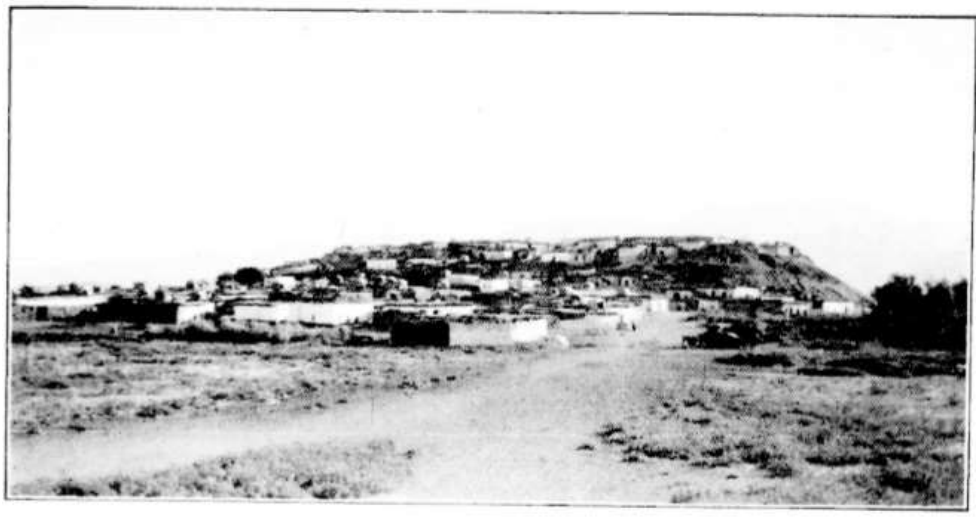

الشكل 6: تل سلحب قبل تجفيف سهل الغاب.
THOUMIN R. 1936.

المبحث الثالث: الدراسة الجيومورفولوجية

تهدف هذه الدراسة إلى معرفة الواقع الجيومورفولوجي لسهل الغاب قبل عملية التجفيف الأخيرة وبعدها، وفيما يلي عرض لما تم التوصل من معطيات:

الجيومورفولوجية الأصلية لسهل الغاب: تتمثل الجيومورفولوجية الأصلية لسهل الغاب بسهل منبسط يؤلف استمراراً لمقعر العاصي الأدنى المنغلق نحو الجنوب، والمرتبط بنطاق البحر الأحمر الفالقي. يحده من الشرق جبل الزاوية، ومن الغرب السلسلة الساحلية. وقد تأثر قسمه الشمالي خلال عصر البليوسين بنشاط بركاني أدى إلى تشكل عتبة قرقور البازلتية، التي كانت مسؤولة بشكل مباشر عن تشكل المستنقعات في سهل الغاب عموماً (الشكل: 7). شكل المجرى القديم لنهر العاصي شريان الماء الرئيسي داخل السهل، حيث كان يخترقه من الجنوب إلى الشمال، متعرجاً في كثير من الأماكن، ومخترقاً لبحيرتين جنوبية وشمالية، أطلق على البحيرة الجنوبية اسم بحيرة أفامية، وكانت تتوضّع إلى الشمال الغربي من مدينة أفامية. أما البحيرة الشمالية فكانت تتوضّع في القسم الشمالي من سهل الغاب، وتقدر مساحتها بأربع أضعاف بحيرة أفامية.

الشكل 7: مستنقعات سهل الغاب قبل تجفيفه عام 1958م.
THOUMIN R. 1936.

وفضلاً عن ذلك كانت تجري في سهل الغاب العديد من المجاري المائية، التي تنبع من السفوح الشرقية لسلسلة الجبال الساحلية، وتصب إما في المجرى القديم لنهر العاصي أو في إحدى البحيرتين، ويمكننا وصف تلك المجاري من خلال تتبع آثار مجاريها القديمة على النحو التالي:

نهر سلحب: ينبع من قرية أبو قبيس، ويجري في وادي أبو قبيس، ثم يدخل السهل في طرفه الجنوبي مخترقاً بلدة سلحب، ليصب بعد ذلك في المجرى القديم لنهر العاصي.

نهر البارد: ينبع من قرية نهر البارد، ويتجه شرقاً داخل السهل حتى تل مكسور، ثم ينعطف باتجاه الشمال، ويجري بجوار تل الشمرة، ثم يكمل جريانه شمالاً حتى تل كمبتري، ليصب بعد ذلك في بحيرة أفامية، أي البحيرة الجنوبية.

نهر فقرو: ينبع من قرية فقرو، ثم يتجه شرقاً حتى قرية الجورة الأثرية الواقعة إلى الشمال من قرية رشا الأثرية، ثم يخترق سهل فسيح في وسط الجبل، كان سابقاً يشكل بحيرة أثرية قديمة، ثم يخرج منه منحدراً شرقاً في وادي جبلي ضيق حتى قرية بركة الجراص، وبعدها يتجه شرقاً في السهل ليلتقي بنهر البارد بالقرب من تل كمبتري.

نبع عين الكروم: ينبع من بلدة عين الكروم على السفح الشرقي لسلسلة الجبال الساحلية، ويخترق السهل باتجاه الشرق ليصب في بحيرة أفامية.

نبع ساقية نجم: ينبع من قرية ساقية نجم على السفح الشرقي لسلسلة الجبال الساحلية، ويخترق السهل باتجاه الشرق ليصب في بحيرة أفامية.

طاحونة الحلاوة: ينبع من قرية طاحونة الحلاوة على السفح الشرقي لسلسلة الجبال الساحلية، ويخترق السهل باتجاه الشرق ليصب في بحيرة أفامية.

وإضافة إلى ذلك يوجد نبع أسفل مدينة أفامية ونبع إلى الشمال منها يصبان في بحيرة أفامية، ويوجد أيضاً العديد من الينابيع التي تنبع من السفح الشرقي لسلسلة الجبال الساحلية في القسم الشمالي من سهل الغاب، وتشكل مجاري مائية تخترق السهل باتجاه الشرق والشمال الشرقي لتصب في البحيرة الشمالية، وأبرز تلك الينابيع نبع الطيب وعين جورين وعين سليمو.

إذاً أدت غزارة مياه نهر العاصي وغزارة الينابيع الجبلية ووجود عتبة قرقور البازلتية إلى تشكل بحيرتين في سهل الغاب، شمالية وجنوبية، يتصلان في فصل الشتاء، وينفصلان في فصل الصيف، واقتصر الاستيطان على بعض المناطق المرتفعة منه وخاصة قسمه الجنوبي، وقد احتفظ السهل بجيومورفولوجيته الأصلية حتى تجففه عام 1958م، مع الإشارة إلى أن السهل كان مجففاً خلال العصور الكلاسيكية مع الحفاظ على البحيرتين الشمالية والجنوبية، ولكن ضمن مساحات محددة من السهل.

الجيومورفولوجية الحالية لسهل الغاب: تم استحداث مؤسسة إدارة مشروع سهل الغاب في 13 كانون الثاني عام 1951م، وفي شهر نيسان عام 1952م قامت المؤسسة بإجراء الدراسات اللازمة لتجفيف السهل، وفي عام 1956م بدأت عملية التجفيف بكسر عتبة قرقر البازلتية بعرض 11– 30م، وبعمق 4 – 6م، وتم تصريف المياه تماماً عام 1958م، كما تم شق مجرى جديد لنهر العاصي مع أقنية فرعية (الشكل: 8)، فتحول سهل الغاب إلى سهل خصب، تم توزيع أراضيه على الفلاحين عام 1969م بموجب قانون الإصلاح الزراعي. أدت عملية التجفيف إلى حدوث تغيرات كبيرة على جيومورفولوجية السهل، حيث اختفت البحيرتان الشمالية والجنوبية، واختفت أجزاء من المجرى القديم لنهر العاصي نتيجةً لردمه أثناء تنفيذ مشاريع الملوحة في السهل، واختفت أجزاء من المجاري النهرية التي تنبع من السفوح الشرقية لسلسلة الجبال الساحلية نتيجةً لتغيير مجراها لتصب في المجرى الجديد لنهر العاصي. كما أدت عملية التجفيف إلى جعل السهل يمثل بيئة منفصلة عن واقعها الجيولوجي والجيومورفولوجي الحقيقي، إذ يعدّ سهل الغاب مع عمقه الاستراتيجي الممتد من سلسلة الجبال الساحلية حتى منطقة السلمية كالجسد الواحد من ناحية المياه الجوفية، ويمثل باطن السهل قلب هذا الجسد، وإن أي خلل في النظام المائي الخاص بالسهل ينعكس بشكل مباشر على بقية أجزاء هذا الجسد، وبالتالي مثّلت عملية التجفيف الأخيرة للسهل واختفاء البحيرتين كارثةً حقيقية ألقت بظلالها على المنطقة بأكملها، ويمكننا تشبيه الواقع الراهن لسهل الغاب مع عمقه الاستراتيجي بالجسد الذي يموت تدريجياً من أبعد أطرافه باتجاه منطقة القلب أي السهل، إذ كان سهل الغاب قبل عملية التجفيف الأخيرة يمثل خزان استراتيجي للمياه الجوفية في المنطقة الممتدة من سلسلة الجبال الساحلية حتى منطقة

السلمية أو أبعد من ذلك باتجاه الشرق، وكانت تلك المناطق حتى تاريخ التجفيف من المناطق الغنية بالينابيع الغزيرة، وكانت تعيش حالة إشباع مائي. وبعد عملية التجفيف بدأ السهل تدريجياً يفقد مكانته الاستراتيجية كخزان للمياه الجوفية، حيث انخفض منسوب المياه، وانعكس ذلك على العمق الاستراتيجي الممتد حتى منطقة السلمية، فبدأت بالتصحر وجفت ينابيعها تدريجياً حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن، أما ينابيع سلسلة الجبال الساحلية من الجهتين فقد انخفضت غزارتها وجف بعضها، كما تعرض السهل للجفاف بشكل تدريجي، والكارثة مستمرة حتى الآن بسبب عدم تعويض النقص في المياه الجوفية، وكثرة الآبار الارتوازية في المنطقة الواقعة شرقي السهل والممتدة حتى منطقة السلمية، وكل ذلك أدى إلى سحب المياه الجوفية من المناطق الشرقية وتمركزها في باطن السهل كونه يمثل النقطة الأعمق في هذا الخزان المائي الجوفي، وإذا ذهبنا في تفسيرنا أبعد من ذلك يمكننا القول أن باطن السهل فقد هو الآخر جزء كبير من مخزونه المائي عبر الزمن، نتيجة بقاء نسبة التعويض ضئيلة جداً بالمقارنة مع نسبة السحب، ومازالت المشكلة تتفاقم يوماً بعد يوم.

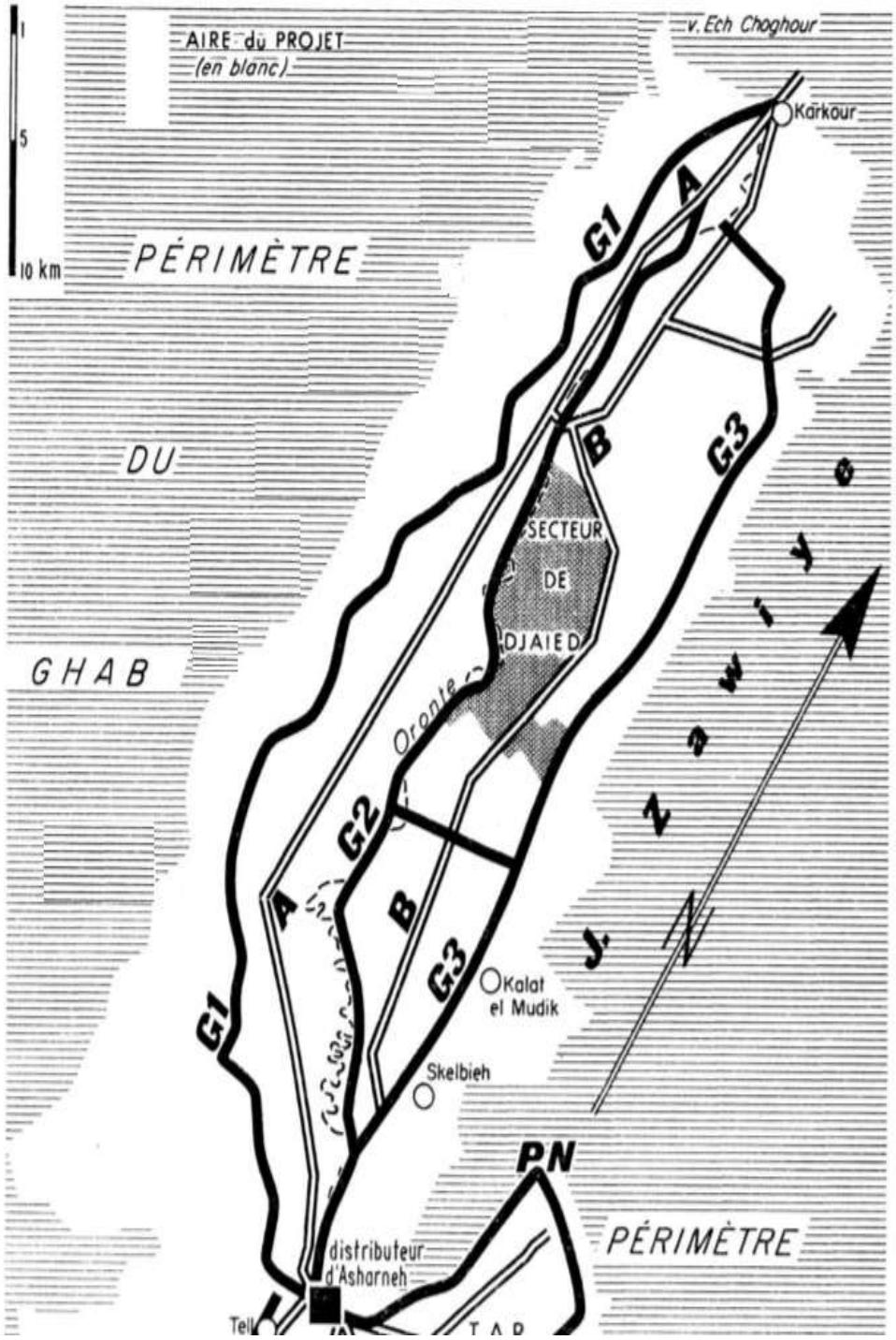

الشكل 8: الشبكة الرئيسية لتوزّع أقنية الري الحديثة في سهل الغاب.

METRAL F. et J. 1979.

نتائج البحث: بناءً على نتائج الدراسات الثلاثة السابقة (التاريخية- الأثرية- الجيومورفولوجية) يمكننا توصيف أربع مراحل للاستيطان في سهل الغاب، وهي من الأقدم إلى الأحدث:

المرحلة الأولى: تعود لعصور ما قبل التاريخ وعصري البرونز والحديد، وهي تطابق الجيومورفولوجية الأصلية لسهل الغاب. كان الاستيطان خلالها ثانوياً داخل السهل وكثيفاً في محيطه، ويعود السبب في ذلك لوجود بحيرتين، جنوبية وشمالية، تتصلان في فصل الشتاء، وتنفصلان في فصل الصيف.

المرحلة الثانية: تعود للعصور الكلاسيكية، وهي تطابق الجيومورفولوجية الأصلية لسهل الغاب. كان سهل الغاب خلالها مجفف جزئياً مع الحفاظ على البحيرتين الشمالية والجنوبية وفقاً لمساحة محددة، أي مجفف بطريقة لم يطرأ من خلالها تغيرات على جيومورفولوجيته الأصلية، ونستدل على ذلك من كثافة الاستيطان العائد للعصور الكلاسيكية داخل السهل وفي محيطه، ومن وصف استرابون الذي تحدث عن خصبه ووفرة غلاله، وبما كان يربى فيه من الأفيال والجواميس والخيل، وأن القدماء أقاموا فيه سدوداً وحفروا خنادق لمنع طغيان العاصي، وكذلك من خلال مشاهدات السائح الفرنسي كيليوم راي الذي شاهد في سنة 1860م سداً له فتحات أسفل المياه العذبة التي تغطي السهل، وأنه في جنوب الغاب ووسط مياهه قرية تدعى الخندق، في جوارها خندق قديم كان خاصاً بتصريف المياه نحو العاصي، وكانت برزية تفترق عن أفامية ببحيرة تحصل من سد، كل ذلك يؤكد أن سهل الغاب كان مجففاً جزئياً خلال العصور الكلاسيكية.

المرحلة الثالثة: تعود للعصور الإسلامية، وهي تطابق الجيومورفولوجية الأصلية لسهل الغاب، أي كما كان عليه الحال خلال عصور ما قبل التاريخ وعصري البرونز والحديد، حيث اتسعت مساحة البحيرتين بعد هجر مدينة أفامية، وإهمال تنظيف الأقنية والمجاري المائية وصيانتها، التي كانت تنظم منسوب المياه داخل السهل خلال العصور الكلاسيكية، وهذا ما أدى إلى ازدياد مساحة المسطحات المائية داخل السهل، وبالتالي أصبح الاستيطان ثانوياً داخل السهل ومقتصراً على بعض الأجزاء المرتفعة في طرفه الجنوبي، وكثيفاً في محيط السهل، وهذا ما تؤكده أعمال المسح والتنقيب الأثري داخل السهل وفي محيطه، وكذلك أقوال المؤرخين مثل ابن رستة والقلقشندي وأبو الفداء وشيخ الربوة...

المرحلة الرابعة: بدأت مع تجفيف سهل الغاب عام 1958م ومازالت مستمرة حتى الآن، تعرض خلالها سهل الغاب لتغيرات كبيرة على جيومورفولوجيته الأصلية، حيث اختفت البحيرتان الشمالية والجنوبية، كما اختفت أجزاء من المجرى القديم لنهر العاصي، وأجزاء من المجاري النهرية التي تنبع من السفوح الشرقية لسلسلة الجبال الساحلية نتيجةً لتغيّر مجراها

لتصب في المجرى الجديد لنهر العاصي، وبالتالي تحول سهل الغاب إلى سهل خصب (الشكل: 9)، ووزعت أراضيه على الفلاحين، وشهد كثافة تدريجية في الاستيطان وصولاً إلى ما نحن فيه اليوم. ولكن بالمقابل نلحظ أن سلبيات التجفيف كانت أكثر من إيجابياته، حيث أدت عملية التجفيف إلى فقدان سهل الغاب ومحيطه لحالة الإشباع المائي التي كان يعيشها قبل التجفيف، وبالتالي بدأ السهل تدريجياً يفقد مكانته الإستراتيجية كخزان للمياه الجوفية، نتيجة انخفض منسوب المياه، وتعويض النقص في المياه الجوفية من مخزون المناطق المحيطة كون السهل يمثل المنطقة الأعمق، وانعكس ذلك على العمق الاستراتيجي الممتد حتى منطقة السلمية، فبدأت بالتصحر وجفت ينابيعها تدريجياً حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن، كما انخفضت غزارة ينابيع سلسلة الجبال الساحلية وجف بعضها، وتعرض داخل السهل أيضاً للجفاف بشكل تدريجي.

الشكل 9 مشهد عام لسهل الغاب بعد تجفيفه.

الخاتمة:

شهد سهل الغاب عبر تاريخه أربع مراحل من الاستيطان، الأولى تعود لعصور ما قبل التاريخ وعصري البرونز والحديد، والثانية تعود للعصور الكلاسيكية، والثالثة تعود للعصور الإسلامية، والرابعة بدأت مع تجفيف سهل الغاب عام 1958م ومازالت مستمرة حتى الآن. وبقي سهل الغاب حتى تجفيفه عام 1958م محافظاً على جيومورفولوجيته الأصلية، حتى خلال مرحلة الاستيطان الثانية العائدة للعصور الكلاسيكية التي تم خلالها تجفيف السهل للمرة الأولى مع الحفاظ على البحيرتين الشمالية والجنوبية وفق مساحات محددة، ولكن بعد تجفيفه عام 1958م تعرض سهل الغاب لتغيرات كبيرة على جيومورفولوجيته الأصلية، وشهد كثافة في الاستيطان، وتحول لسهل خصب يستثمر زراعياً، ولكن بالمقابل نلحظ أن سلبيات التجفيف كانت أكثر من إيجابياته، ولم يقتصر التأثير السلبي لعملية التجفيف على منطقة السهل فقط، بل على عمقه الاستراتيجي الممتد من سلسلة الجبال الساحلية غرباً حتى منطقة السلمية شرقاً، ويعود السبب في ذلك بشكل أساسي إلى فقدان سهل الغاب ومحيطه لحالة الإشباع المائي التي كان يعيشها قبل التجفيف، وهذا ما جعل السهل وعمقه الاستراتيجي أشبه بالجسد الذي يموت من أبعد أطرافه باتجاه القلب أي باطن السهل.

المراجع:

1-ابن رستة، الأعلاق النفسية، مطبعة بريل، ليدن، الجزء 7، 1892.

2-أبو الفداء، تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

3-أحمد وصفي زكريا، جولة أثرية في بعض البلاد الشامية، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، 1984م.

4-أحمد وصفي زكريا، مدينة أفامية الأثرية وصلتها بسهل الغاب، الحوليات الأثرية العربية السورية، العدد 7، الجزء 1، 1957م.

5-القلقشندي، صبح الأعشى، المطبعة الأميرية، القاهرة، الجزء الرابع، 1914م.

6-شيخ الربوة، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية، بطربورغ، 1865م.

7-غازي حسام، والحايك مي، آثار سورية خلال عصور ما قبل التاريخ، منشورات جامعة دمشق، 2021- 2022م.

8-غازي حسام، وداؤود صفوان، نتائج المسح الأثري لجنوب الغاب، الوقائع الأثرية السورية، المديرية العامة للآثار والمتاحف، العدد 5، 2011م.

المراجع الأجنبية

1-BALTY J.-C. 1987. Problèmes de l'eau à Apamée de Syrie. In : L'homme et l'eau en Méditerranée et au Proche-Orient. IV. L'eau dans l'agriculture. Séminaire de recherche 1982-1983 et journées des 22 et 23 octobre 1983. Lyon : Maison de l'Orient et de la Méditerranée Jean Pouilloux.
2-BALTY J.-C. 1991. Apamée et la Syrie du Nord aux époques hellénistique et romaine. Revue du monde musulman et de la Méditerranée, n° 62, Alep et la Syrie du Nord.
3-CASANA J. 2012. Results of the 2010 season of excavation by the American expedition to Tell Qarqur, CAS, vol. VI.
4-COPELAND L. et HOURS F. 1993. The Middle Orontes, Palaeolithic Flint Industries. *In Le Paléolithique de la Vallée Moyenne de l'Orontes (Syrie) Peuplement et environnement (Sanlaville et all. (eds)*, BAR. IS. 587.
5-METRAL F. et J. 1979. Maîtrise de l'eau et société dans la plaine du Ghab. Revue de géographie de Lyon, vol. 54, n°3.
6- THOUMIN R. 1936. Le Ghab. Revue de géographie alpine, tome 24, n°3.